

سادسا : استدلال المحرمين بمعانٍ خارجةٍ
عما تقدم ومناقشتهم

قالوا

إن الموسيقى محرمة؛ لكونها مُطَرِّبَةً

والجوابُ

١- الأصل في الطرب أنه شيء يثير النفس لفرح أو حزنٍ أو ارتياحٍ. وأغلب ما تُستعمل الموسيقى اليوم في الفرح أو الارتياح.

وهذا المعنى للطرب هو أمر مدرك في سماع الموسيقى لا يُنكر؛ حيث تجد النفس للسمع ارتياحا وانبساطا محسوسين. فهل في ذلك أى وجه للتحريم؟! اللهم لا!

إن الإسلام لا يمنع ولا يحرم ما يزيد الحياة حسنا وبهاءً وصلاحا وفلاحا، بل هو يحض على ما يرتفع بالمشاعر الإنسانية ويسمو ويرتقى بها. ولذلك فالغناء والموسيقى مما لا يجوز رفضه - لذاته -.

فضلا عن كونهما مما لا ينبغي استهجانه باسم الرجولة والوقار؛ وكأن الرجولة قرينة الغلظة في الطباع، وكأن الوقار قرين البلادة وانحراف الذوق!

٢- إن اعتبار الطرب علةً لتحريم الموسيقى يوجب تحريم سماع كل صوت مُطرب (أى: يسبب طربا) سواء صدر من إنسان أو طير أو آلة، وسواء كان الصوت مصحوبا بكلام - قرآنا كان أو أذانا أو ذكرا أو شعرا - أو غير مصحوب.. وهذا كله باطل ظاهر البطلان.

لو كان المقصود تحريم المعازف «لذاتها» لقيسَ عليها، ولدُخل في حُكمها واندرج، كل ما يلتذ به الإنسان من أصوات الطيور وغيرها

ليريح طبعه المكدود .. وهذا من أشنع ما يلزم المحرمين ، وفيه دليل
ساطع على أن المحرّم من ذلك هو ما كان يُحرّك من القلب ما هو «مرادُ
الشیطان» من شهوة وفتنة .. إلخ.

وأما ما يحرك الشوق إلى الله أو يُدخل البهجة والمسرّة على النفس
- لتتنشيطها وتحفيزها على مواصلة الجد والعمل - فهذا كله - كما
قال أبو حامد الغزالي في الإحياء - «يُضاد مراد الشيطان».

٣- الأدلة المبيحة للغناء والموسيقى - حتى على قول من يحصرهما
في الأعراس والأعياد ، ويحصر الموسيقى المباحة في الدف فقط، ويحصر
جواز كل ذلك في النساء فقط - تدل دلالة قاطعة على أن أثر الصوت
في إطراب السامع لا أثر له في الحكم؛ إذ لو كان للإطراب أثرٌ في
التحريم لَمُنِع الغناء والدف في الأعراس والأعياد ولَمُنِعَت النساء منه
.. وهذا لا يقول به المحرمون!

٤- لقد قلنا مرارا وتكرارا أن الأصوات - وما الموسيقى إلا صوت
من الأصوات- لا يتعلق بها حكم لذاتها إلا الإباحة ، وإنما يصير الأمر
إلى حلّ أو حرمة بالغرض الذي يُستعمل الصوت من أجله؛ إن حسنا
فحسن ، وإن قبيحا فقبيح ، وإن مباحا فمباح.

قالوا

إن الموسيقى والغناء هي من شعار الفسقة والفجرة وشاربي الخمر،
والتشبه بهم حرام، ومن ثم فالاستماع لها والاشتغال بها حرام

والجوابُ

١- هذا قول باطل، وهو خطأ على الشرع، وتجنُّ على التاريخ،
بل وفيه اتهام صريح للنبي ﷺ وصحابته الكرام بأنهم يتشبهون بأهل
الخمر والفجور والليالي الحمراء؛ فإن الغناء والضرب على المعازف، من
دُفوف وكبر ومزامير، قد وقع - فيما ثبت لدينا- في خير مجتمع على
وجه الأرض^(١)، بل في خير مجتمع عرفه التاريخ؛ مجتمع الصحابة
(رضى الله عنهم)؛ في عهد النبي ﷺ وبعده.. فكيف يصح - بالله
عليكم - مثل هذا الإطلاق والتعميم؟!

٢- لقد أباحت الشريعة الإسلامية الغناء والمعازف تأصيلاً، وذلك
لعدم الناقل، الذي عجز عن الإتيان به المحرمون، حيث إن الأصل في
الأشياء الإباحة.

فضلا عن أن الشريعة قد جاء فيها - من القرآن وصحيح السنة كما
سيأتى بيانه، وقد مر بعضه سابقاً - نصوص تفيد الإباحة والحل، بل
والندب واحتمال الوجوب في بعض الأحيان.. فكيف يصح إطلاق مثل
هذا الوصف الذي ذكره المحرمون؟!

(١) وقد مر بنا شيء من ذلك؛ انظر مناقشتنا لأدلة المحرمين من السنة (أرقام: ٤، ٥،

٧). وسيأتى لذلك زيادة تفصيل إن شاء الله.

٣- لقد ذكرنا أن قول المحرمين هذا ما هو إلا تجن على التاريخ .. وليس هذا مبنياً على فراغ؛ فإنه قد عُهد السماع و/أو الاشتغال بالغناء والموسيقى فيمن عُرفَ بالدين، بل وبالإمامة فيه - بخلاف النبي ﷺ وصحابته الكرام - من أمثال :

إسماعيل بن جامع المعنِّي (وكان صاحب قرآن، من أهل مكة، وهو من مشاهير المغنين)^(١).

والسيدة الفاضلة المغنية عليّة بنت المهدي أخت الرشيد (وهي شاعرة عارفة بالغناء والموسيقى، رخيمة الصوت، ذات عفة وتقوى ومناقب)^(٢).

وإمام المغنين وسيدهم إسحاق بن إبراهيم الموصلي (الإمام العلامة الحافظ ذو الفنون، صاحب الموسيقى والشعر الرائق والتصانيف الأدبية، مع الفقه واللغة والبصر بالحديث وعلو المرتبة)^(٣).

والعلم الجليل الكبير أبو يوسف الماجشون يعقوب بن دينار بن أبي سلمة (مفتي المدينة وراوى الحديث الثقة الفاضل الشهير).

وقاضى البصرة عبيد الله بن الحسن العنبري (من سادات أهل البصرة فقها وعلماء وعقلا وثقة).

والإمام الثقة الحجة إبراهيم بن سعد (أحد أعلام علماء المدينة، وأحد أشهر رواة الحديث الثقات، وقد كان لا يحدث حديثاً إلا ويضرب قبله على المعازف).

وغيرهم كثير قديماً وحديثاً.. فكيف يستقيم قول المحرمين سالف الذكر!؟

(١) انظر: الأغاني لأصفهاني، ٦ / ٢٨٩.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٠ / ١٨٧.

(٣) انظر: الأغاني لأصفهاني، ٥ / ٢٦٨. وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١١ / ١١٨.

٤- إن الغناء والموسيقى - تأصيلاً وواقعاً وشرعاً - ليست «شعراً» مختصاً بالفُسَّاق، وليست «حكراً» على أهل الفجور، وليست «علامة تجارية» تدل عليهم، ولا «أمراً» من الأمور التي بها يتميزون ويُعرفون دوناً عن بقية الناس.. بل إن استماعها و/ أو الاشتغال بها منتشر بين الفضلاء والنبلاء - كما مر بنا، وكما هو واقع مشاهد- بل وبين الناس كافة.. فأمرها غير مميِّز لفئة عن فئة، أو فرقة عن فرقة، أو طائفة عن طائفة.. هي أمر خارج عن حد الخصوصية وعن كونه تشبيهاً؛ فإن التشبه إنما يكون في شيء مخصوص بشخص أو فئة معينة لا يتعاطاه إلا هم.. أما ما كان يفعله المرء هو وغيره فلا يقال فيه: تشبُّه.

ومن هذا تعلم خطأ، بل وبطلان، ما ادعاه المحرمون في قولهم السابق؛ فإن الغناء والموسيقى معروفٌ أمرهما في الناس، كل الناس، منذ الجاهلية، بل منذ عهد الفراعنة، بل منذ فجر البشرية الأول، فجاء الإسلام وهي في الناس، ولم تكن تميز فئة عن فئة، أو أهل ملة عن سواهم، حتى يقال: هي شعارٌ لهؤلاء يُعرفون به، فيجب تحريمها؛ لأن من تشبه بقوم فهو منهم!

وكيف يُتصوَّر ما يدعيه المحرمون، وحبُّ الغناءِ والموسيقى: «فطرةٌ بشرية» و«سنة كونية» كما سبق البيان؟!!

ثم إن المباح - كما يقول بحق، مع تصرف قليل، سلطان العلماء/ العز بن عبد السلام في الفتاوى الموصلية- لا يُترك لأجل أن الكفار، أو الفساق، تفعله.. هل نترك ديننا، وما أباحه الله لنا، لمجرد فعل الكفار إياه؟! ما أبطله من قول، وأسقمه من فهم!

لا يُتْرَكَ الحق لأجل الباطل ، ولو تُرِكَ الحق لأجل الباطل لتَرَكَ
الناسُ كثيرا من أديانهم.

ويختص النهي عن التشبه بالكفار، أو الفساق، بما يفعلوه على
خلاف مقتضى شرعنا، وأمّا ما يفعلوه على وَفْقِ النَّدْبِ أو الإيجاب أو
الإباحة في شرعنا، فلا يُتْرَكَ لأجل تعاطيهم إياه؛ فإنَّ الشرع لا يَنْهَى
عن التشبه بَمَنْ يفعل ما أذن الله به - والمباح من جملته- .

الله سبحانه وتعالى لم يینه عن التشبه بَمَنْ فعل ما سمح به الله، ولا
يجوز أن يُتَصَوَّرَ في حقه ذلك - حاشاه- ؛ أينهى الله عمّا أذن في
فعله - والمباح من جملته- لأجل مجرد فعل الكفار، أو الفساق، إياه؟! ..
لا يقول بذلك عاقل، فكيف بواهب العقل^(١)!

(١) استطراد : وفي هذا كله نقضٌ، بحق وصدق وعلم، لأصل فكرة وكتاب الإمام ابن تيمية
«اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم». وأكتفى بهذه الإشارة.